رابندرانات تاجور

كما أعرفه

محمود النجوري

— ١ —

وُلِدَ تاجور في مدينة كلكتا عام ١٨٦١ م ، وكان أبوه صدّيقاً متعبداً ، يخرج كل يوم الى منسك له بالغابة ، غدا فيما بعد مدرسة تاجور التي أشرقت منها مبادؤه الروحية والعالمية . وكان تاجور في صباه حدثاً متروكاً لرعاية أم لم ينعم بحنانها إلا قليلاً ، اذ توفيت بعد مرض أصابها ، فكان لوفاتها في ذكريات تاجور أبلغ الأثر وأعمق التأثير . ولم يجد تاجور في بيته رعاية ، اذ انصرف أبوه عنه الى منسكه ، يحدث الناس والأتباع فيما يدعو اليه الرجل الحكيم الفيلسوف من النظر والتفكير في النفس وفيما حولها من كائنات . فنشأ محروماً من حنان الأم ورعاية الأب ، ولكنه خرج من التجربة صغيراً اذ لجأ الى الطبيعة ينظر فيها ويعيد النظر والتفكير ، حتى ارتسمت في خياله الصغير صور الحياة ، ولقد سجل تاجور هذه الفترة من صباه في كتاب أرسله الى صديق فقال فيه :

« لم تلبث ان حرمتني الأيام من أبي وأنا حدث صغير فأصبحت وحيداً بالدار ، آوي الى نافذته ، أرقب الطبيعة فترتسم في مخيلتي ما يجول بأمامي من صور شتى ، لقد كانت لي الطبيعة الرفيق الذي لازمني والذي وجدته بجواري دائماً ، إني لا أعرفه حقاً ولكنه رفيق عظيم عندي كل شيء » (١)

ولما بلغ أشدّه ذهبوا به الى المدرسة ، ولكنه لم يلبث ان نالها بغيظ قلب الطفل البريء من اعوجاج نظام لا يتفق مع ميوله الحرة ، فخلق سوء نظام المدرسة من قلب تاجور ، المربي المجدد المحب للطفل ، والذي يرى فيه العالم منطوياً الى حين ، فهجر المدرسة ساخطاً ، ولكن والده الشيخ عهد به الى اساتذة آخرين يعلمونه في البيت ، فلم يغير هذا التعليم من رأيه ، ولقد قال يوم افتتح مدرسته

« لقد قلت لكم اني منذ ما أنشأت هذه المدرسة ، لم تكن لي خبرة ما بالتعليم ، ولكني في الواقع اكتسبت تلك الخبرة نسبية عرفت منها ما يجب ألا يعمل به الطفل ، وهو ما كان موضوع ألمي وكنت أتألم مدة طفولتي من شعوري بأن التربية التي كنت أتلقى في نظام في مدرسة لا صلة له بالتعليم »

ولبث تاجور في البيت بين اساتذته ، فتلبست مراهقة التي أدركته منذ الطفولة حب

(١) « ذكريات » تاجور

الطبيعة وجمالها، فمال الى الأدب في حداثته ، فنظم الشعر والاناشيد، وكتب القصص الصغيرة محاكياً شعراء البنغال ، حتى اذا ما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، استرجع ما بقلبه من صور واستعاد اشباح السنين الماضية ، وأخذ منها العبرة والتفكير ، واستوحى الطبيعة التي نشأ في مهدها يتيماً محروماً ، وصوّر الآلام التي تتابعت عليه منذ فقد أمه ، ومنذ حرمانه معين العطف والحنان ، واستوحى الى هذا ما كان قد قرأ في الكتب الدينية من أساطير وقصص فكتب في هذه الفترة « أناشيد المساء » ثم « أناشيد الصباح » وهما صورتان متقابلتان من وجهي الحياة التي تعرض للشباب، يأساً حيناً وأملاً حيناً، حزناً حيناً وفرحاً حيناً ، حبّاً حيناً وتردداً حيناً

ولقد كان تاجور في هذه الفترة يلحن الاغاني الدينية ويرتلها في المعبد بصوت أغنّ حبّب الناس فيه ولفت اليه انظارهم . وفي هذه الفترة الدقيقة من الحياة ، عندما يتفتح قلب الشباب ، ويتقبل ربيعُ الحياة مبتهجاً أو عابساً ، في هذه الفترة الدقيقة من الحياة يجب أن نبحث عن أثر المرأة في الشاعر . ولكن تاجور قد تركنا دون ان يرشدنا الى المرأة التي ألهبت قلبه ، والتي علمتهُ أغنية الحب الاولى — لقد قال ان الطبيعة هي التي علمتهُ كل شيء، ولكن الطبيعة لا تعلّم الحبّ ، وإنما تعاون الشاعر على ان يدرك معاني الحب ، وهو لم ينشر كتبه حتى تأليفها ، وهو لم يقدم لنا شعره طبق السن التي قاله فيها — ولذلك اضطرب ادباء الغرب جميعاً في تخريج شعر الشباب من بين أشعار تاجور الصوفية ، وذهب أغلبهم الى وهم خاطىء فغلّبوا الصورة الصوفية على جميع أشعار تاجور — ولكن كيف لا يحب تاجور ، وهو شاعر الحب الذي حلّ الذات البشرية على طريقه المقدّس ، كيف لا يحب تاجور وهو الذي يدعو الناس الى الانسجام بروح الكون — ان المرأة ولا شك ، قد لمست بأناملها أدقّ وأعزّ الانغام القدسية في قلب هذا الشاعر — ان خيال المرأة يدور دائماً في شعره ، بل ان شخصها لقائم في ديوانه، وان عطفها وحنينها لا يزالان دائماً بين مناحيه الكثيرة التي ألفها في عهوده المختلفة

وأغلب الظن عندي ان تاجور كتب في فترة شبابه رواية « شترا » وهي مسرحية غنائية اقتبس فكرتها من اساطير الهند السنسكريتية من كتاب « المهابهراتا » المقدّس — ان « شترا » امرأة نشأت نشأة الرجال لترث ملك أبيها ، ولكن قلب المرأة لا يتلف ولا تسكت فيه الأنوثة ولا الحنين الى الطفل هي لم تخلق الا لتكون عوناً للرجل ومهبطاً لقلبه وأمّاً لولده ، ومشاعرها جميعاً توحي اليها ان تكون نظاماً مكملاً للاضداد فهي كالسلب من الايجاب وكالضوء من الظلمة وكالحركة من السكون (١) — وعندما تقابلت « شترا » بأرجونا أول رجل

(١) ... في محاضرة سنة ١٩٢٦

لقيت تداعى استرجالها وتتنحت أنوثتها وعصف الحب بقلبها. وهنا يقول تاجور على لسانها:

« لقد شعرت أني امرأة وخلعت زي الرجال وعدت بقلبي الرجل »

ولبث تاجور في كلكتا حتى دعاه ابوه الى القرية ليتولى أمر ضياعه فعاد الى الريف وما لبث طويلاً حتى تزوج ، وكانت سنه قد قاربت الثالثة والعشرين . وقد أفاد هذا الانتقال تاجور اذ هيأ له الاندماج في الريف والاختلاط بالشعب والاستماع الى أحاديث الناس وأغانيهم وتاجور يقرر ان فلسفته انما هي فلسفة الشعب الهندي وفي هذا يقول : —

« لقد يحسب بعضكم ممن قرأ لي أني فيلسوف ، وربما كان لي حظاً من الفلسفة حقه ونصيب ، لكن ليس حظاً يتيسر على شعري ويبعث قصائدي الى قاع سحيق تغمره مياه المحيط فلا يرى من خلالها الا كما ترى الاسماك الصغيرة تائهة وسط اللج العظيم ، إني أنا ككثيرين من أهل الهند وفلسفتي لا تتعدى فلسفة الشعب ، وتلك عندي فلسفة التذوق » (١)

في فترة الريف عاش تاجور زوجاً باراً بزوجه وأولاده ، هادئاً قانعاً بعواطفه ، فيها استمتع بجمال الحياة بقدر ما استمتع بلذة فكره وعصارة أخيلته ، لذا ألف في هذه الفترة أغاني وقصصاً وكتب روائع شعره ، ومن مؤلفات هذا العهد « البستاني » و« هبة العشاق » و« الهجران » وروايات ومسرحيات أخرى متعددة

لقد كان هذا العهد هو ربيع حياة شاعرنا الحكيم ، لبث فيه الى الاربعين ينعم بمباهج الحياة وأسرارها اللينة ، ويلق الدنيا من وجهها الضاحك الباسم — ولكن ماذا بعد الربيع ؟ لاشيء غير خريف يترك الشجرة عارية من ورقها وزهرها . لاشيء غير وحدة في صحراء الحياة المجالدة الزمن ؛ لقد هبت العاصفة بدار تاجور المبتهج فاتت زوجة وانطفأ مشعل ابنته الكبرى ثم فجع الشاعر الحزين في أصغر ابنائه ، كل هذا في بضعة أشهر ولكن تاجور ما كان ليبتئس . ولكنه كان ليرضى ، يستقبل الشر فيأمل منه الخير . ولقد سجل تاجور هذه الفترة في ذكرياته

« ان عاصفة الموت التي اجتاحت داري وقصفت زهرات أبنائي ، كانت علي نعمة ورحمة ، فقد أشعرتني بنقصي ، وبنقصي الى انشاد الكمال ، وأفهمتني ان العدم لا ينقص ما يضيعه منه . لقد عرفت حقيقة الموت ، إنه الكمال المطلق ، وليس من شيء في الحياة يذهب عبثاً بل مرده الى رجعة ، تاركاً العبرة نسلو بها ونفكر فيها

لقد أدركت أني في هذا الوجود لم توصد علي أبواب سجني ، لقد انتزع الفقد دعامة كانت في حوزتي ولكني آمنت في هذا الفقد بمعنى الحرية ، فاقتربت السكينة من نفسي ، ولم تعد الخيبة تعلق علي ، اذ الموت واقع عبثاً في يوم ما » (٢)

في ظني ان هذه الفجيعة هي التي كانت السبب في تعريف تاجور للعالم الغربي ، اذ خرجت منه تلك الشعرية التي صنعتها قراءاته في اللغة البنغالية والتي ألف منها في أسلوبه وحياته

(١) خطاب تاجور في مسرح حديقة الازبكية بالقاهرة سنة ١٩٢٦ (٢) ذكريات تاجور

كتاب « جيتا نجلي » أي « القربان الشعري » الذي تقدم به الى العالم الغربي لأول مرة فعرفه وأحبه وأقبل على ادبه وشعره وفلسفته اقبالاً لم يلقه شاعر شرقي قبله غير عمر الخيام

و«القربان الشعري» شعر مسجع ترجم الى الانكليزية من البنغالية وهو يصور هذه الفترة الغنائية من حياة تاجور ، يصور الخريف بعد ربيع مبتهج، يصور صلوات وابتهالات متعالية من قلب حكيم شاعر مدرك لحقيقة الحياة ، هو تصوفه ورمز الى المثل العليا والجمال المطلق، وهو صورة مقابلة لهذا الشعر الغزلي العفيف الذي ثار به قلب تاجور أيام شبابه، والذي جمع من الحب والألم والأمل والحيرة واليقظة والتطلع والاستكانة والتردد ما جمع ؛ والذي ضمّ من أطياف المرأة أشباحاً حلوة تلوّح بالآمال والأماني تارة وبالغدر والخيبة تارة أخرى. هذا « القربان الشعري »(1) قد دفع الناس في الغرب من أدباء ونقّاد وكتّاب الى ان يخطئوا في فهم تاجور ، لان تاجور قد قابلهم به في صورة المتصوّف فلما قابلهم بعد ذلك بأشعاره التي نظمها ايام الشباب حسبوا تاجور أيام الشباب هو تاجور بعد الاربعين — على ان تاجور في «القربان الشعري» كان الطائر المأخوذ بجمال الله وجلاله، ولقد قال عنه أحد النقّاد الفرنسيين «إن القربان الشعري كأس طافحة بالفرح والامل ومحبة الله» وانك لتدرك من ابتهال تاجور الذي يقول فيه :

« أنت الذي اريده ، انت وحدك
أنت يارب ! أنا معدو اليك ، مأخوذ أبداً بك في صمت
لست أعرف كيف أدرك أسرار ألحانك
إن موسيقاك لتضيء الدنيا وتسري بأنفاسها في ارجاء السماء
بينما يجتاز فيضها المقدس الحدود ويخرق الاصفاد .
إن قلبي تواق الى الاتصال بأغنيتك
ولقد جاهد على ان يخرج الالحان طافرة ليلتئم بألحانك .
ولكن عبثاً ما فعل قلبي
سأتكلم اذن ولكن أنّى لبياني ان يسمو على الالحان
إني جاهد لابعد عن نفسي خطايا الزمن
اني واثق بك ايها الحق الكريم الذي أشعلت نور الحكمة في عقلي
سأبذل نفسي لاتمسك في جميع اعمالي
أيا قويّ ان قوتك تهبني الصبر على العمل

ثم انك لتدرك في هذا الابتهال الصورة الصوفية التي أخذت بلب تاجور ، وإنها لواضحة المعنى في غير رمز ، وانك لتجد هذه الصورة الصوفية حاضرة أيضاً في ديوان « قطف الثمار » Fruit-Gathering — والصورة الصوفية التي تدور في شعر تاجور ليست الا الميراث الشعري الخالد الذي تلقاه الشاعر الحكيم من قلب هذا الشرق الكبير ، الذي أوحى اليه بأصول المدنية الروحية التي لن تقهر ولن يمسها وهن أو ضعف

(1) ترجم «القربان الشعري» الشاعر الفرنسي اندريه جيد سنة ١٩١٤

ولقد قدّم « القربان الشعري » للعالم الغربي الشاعر الايرلندي الشهير ييتس بمقدمة بليغة قلّد فيها تاجور إمارة الشعر في العالم في القرن العشرين ، ولقد خاطب ييتس أهل الغرب ، وهو يقدم لهم « القربان الشعري » في قوله : —

دونكم نموذجاً سامياً لادب الشرق يجود به شاعره العالمي تاجور ، فيعطيكم صوراً للحب ليست كما عهدتم معشر الشباب من مجون وعبث ، ستجدون فيها أسمى العشق تراتيلا جميلا يدنيكم من الجمال ، ويقربكم من ادراك الحق والجلال ، ان تاجور صورة لهذا الشرق الحالم العظيم ، ومهمة في الحياة هو ان يكشف للروح ، ويعرف اسرار وحدتها بين الكائنات ويتخذ له من تيهها حصانة لادراك الخفي المطلق وتهذيب العقل والقلب حتى تدرك الانسانية الكمال المثالي

ولبث الغرب متأثراً بوحي هذه الصور الصوفية العذبة ، فلما أخرج تاجور دواوين اشعاره التي جادت بها قريحة الشباب ، بقيت هذه الصور مترددة مطبوعة في أذهان الادباء ، فاختلط عليهم الامر وتناوله نقّاد بأنهُ شاعر صوفي بارع في المذهب الرمزي

وفي الحق ان ثمرات الشباب كديوان «البستاني» The Gardener و«الطيور الشاردة» « Stray Birds » و « الهلال » The Crescent Moon و« هبة العشاق والهجران » و « شترا » ، كل هذه وما اليها من اشعار الشباب انما تكشفنا على ناحيةٍ بهجة من حياة تاجور الاديب العظيم . وتدنينا من أمر قد التبس على كتّاب الغرب ونقّاد تاجور ، وهذا الامر جليل خطر في حياة الشاعر وهو ليس بأفكار صوفية ، وانما هو وحي المرأة في قلب كل فنان وأديب وصاحب رسالة كشاعرنا تاجور

ان تاجور لا ينكر أثر المرأة فيه ، هو يراها قوة تعينه على الحياة ، لا يناهضها ، ولا يرى فيها الخصم العنيد ، بل ينشد فيها الحب والرحمة والتعاون ، وهو يخاطبها في ديوانه «البستاني» خطاب الفن والموسيقى فيقول لها :

أيتها المرأة لست من صنع الخالق وحده
بل أنت من فن الرجال
هم أبداً يخترون عليك الجمال من أعماق قلوبهم
فالشعراء يصنعون لك ثوباً من خيوط الخيال الذهبي ،
والفنانون يسبغون على جبينك مجداً من الخلود النضر
والبحر يأتي بدره ، والمناجم تترك عسجدها ،
والبساتين تتفتح عن أزهارها
كل هذا ليكون لك جميعاً حلية وزينة وبهجة .
بينما رغبات القلوب تنفح شبابك بهاء
أنت . . . نصف امرأة ونصفك خيال .

فالمرأة في شعر تاجور عامل حي يقظ متحرك ؛ خرجت في فترة شبابه من نفسه العبقرية أعز ما تجود به الحياة من حب وجمال وصور وفن وأدب وموسيقى . كانت له فيما بعد

الاربعين سبيلاً مأموناً لادراك حقائق الأشياء ومعاني الصوفية العذبة التي ورثته اياها قراءاته في أدب الهند وفلسفة الشرق الحكيم ، ولقد استطاع تاجور ان يكتب فلسفة خالدة لهذه المعاني كلها ، وان ينشر بها كأوضاع ثابتة لمدنية روحية ، يجب ان تسود العالم في وحدة متماسكة بعيدة عن الاثرة والانانية ، وما يتحو اليه الغرب من تعاليم آلية قائمة على المادة وحدها . فيتحدث تاجور عن الحب ويحاضر تلاميذه وأتباعه في مدرسته فيقول لهم :

« عجيب أمر الحب ، لا تتنافى فيه العبودية والحرية ، ما لا يتعارضان عنده بأيه ، بل يتجاوز فيه ربما لذلك ، لان الحب يستعبد بقدر ما يحرر ، وان حاجة النفس الى العبودية لا تقل عن حاجتها الى الحرية ، وان من أسمى معاني الحب ان يخضع القيود ويرضى بالحدود كما ان من معانيه السامية ان يحطم الاغلال ويحلق في الآفاق بعيداً عن كل سد وحاجز . الا ان العبودية في الحب محترمة كالحرية . أوليس يسير غور الحب ما يحتمل الحب من ذل وعبودية ؟ » (١)

وغاية الحياة عند تاجور ان تُطبع الحياة البشرية بطابع الخير والمحبة ، وان تنتزع عنها طبيعة الانانية والاثرة ؛ فهو يقول :

« ومتى استتب في ضميرنا نظام الحياة ، واطمأن الى ما في الخليقة من إيلاف منظوم ، أصبح ادراكنا للخير طبعاً وحالياً ، واتسم طابع الجلال حياتنا بعميم الخير والحب العام ، وتوجه هذا بالمدنية قبل بالبقاء والخلود ، هذا هو غاية الحياة »

وأعلن تاجور رأيه في الموسيقى فقال :

« الا ان الموسيقى هي أنقى وضع للفن ، لهذا كانت اول تعبير وأوضح بيان للعالم في شكله وروحه ، وهي أقل الأوضاع حلاً بأقوال التعبير عن الفن الخالص . وأرق أوضاع الموسيقى وأقربها من الفن والجمال هو الصمت والعبادة »

وليس الادب والشعر في رأي تاجور خيالاً مكذوباً ولكنهما حقيقة ومتاع بالحرية ندركها في نفوسنا وفيما حولنا من كائنات :

« الوصول الى حقائق الاشياء ، هو مفتاح يلحق بالحرية ، ولفرح هذه الغاية ولاكتناه الحقيقة التي نعمل أبداً دونها يجب ان نبحث وان نطيل البحث وان نتصل بالاشياء المحيطة بنا ، فاذا اتصلنا بالاشياء من طريق روحنا كشفت لنا عما فيها من سر وسمعنا حقائق الخليقة . وعندئذ نشعر بها تمام الشعور ونحس هذه الانشادة الباهرة في الكون كله والتي لا [illegible] عن الروح

والوصول الى الحقيقة وسيلته الشعر ، فالشعر هو جواب الروح الخالدة لنداء الحق الكائن في كل كائن ، والشاعر هو الذي يرى الحقيقة ويبينها ، الحقيقة كما هي لا يزينها الوهم والحقيقة من حيث هي جمال مطلق » (٢)

وليس من مطالب الشعر أن يكون فلسفة ولكنه لن يوفق معانيه الاّ اذا وجد وجهة الفلسفة . وأعذب الشعر ما اتصل بالحياة ، وأوصلنا إليها من طريق فهمها وادراكها ، ولا

(١) فصل من كتاب سدهانا Realisation in Love

(٢) محاضرة بالقاهرة بمسرح الحديقة سنة ١٩٢٦

يكون الشعر متعة إلاّ اذا أطلعنا على خلود الروح من طريق الوصف والخيال

والشعر والفلسفة لا يتناقضان ولكنهما يتعاونان ، ولن يكون شاعراً المتشائم المهزوم ولا الثائر المحطم الأعصاب ، لان الشعر هو ترديد لنغمات قلب كبير مفعم بالايمان والحب والنور والهدوء والسلام ، ولن يكون شاعراً هذا الملحد المرتاب في الروح العليا التي تسيّر الكائنات ، ولن يكون شاعراً هذا الزاهد ، لان الزاهد عدو الحياة ، وكيف يشعر بالحياة عدو لها يناقضها ويعلن سخطه على منشئها . ان الذي لا يرى في الحياة جمالاً لن يكون شاعراً ، وان الذي لا يبحث عن الجمال لن يكون شاعراً ، وان الذي لا يدرك كنه الروح لن يكون شاعراً . يجب ان يفهم الشاعر الحياة أولاً ، ويجب ان يخلق من شعنها نظاماً منسجماً ومن شرها خيراً ، ويرقب الأشياء من خلال الفناء ، ويرضى من فواجعها بما تتركه هذه الفواجع في النفس من تهذيب واصلاح . هذا هو الشاعر او هذا هو تاجور الشاعر

وأما الفيلسوف فهو الذي يستطيع ان يعبر عن آراء الناس وعقائدهم ، والذي يكشف المعاني المستجاة في الاشياء التي تحيط بالحياة ، وينفذ الى ما وراء الاشياء تاركاً للشاعر ادراك الجمال والفهم من مظاهر هذه الاشياء ، هو يبحث عن الحياة داخل الاشياء واجداً الحقيقة في كل شيء ، داعياً الى الوحدة الروحية بين الكائنات جميعاً . والفن في نظر تاجور :

« هو خَلْق يشعر بالحياة الشعر يتغلب ما تبعث عليه الآلية والمادية ، وهو يشبعنا تقصيداً وسعادة بها ، ويحررنا من قيود الاوضاع والعرف ، والفنان هو الذي يطلق في نفوسنا جمال الروح ويتيح منها ادراك الحقائق (١)

هذه بعض مقوّمات الثقافة الادبية والفنية التي أعلنها تاجور للغرب ، وهو وان كان عالمياً في معانيه ومقاصده ، إلاّ أن صورة البيئة الهندية وصورة الشرق تلازمان شعره ولا تفارقان قلبه أبداً ، فالنهر والربيع وشجرة الناجو وزهرة اللوتس والحناء وأوراق الموز وحقول الأرز والطاووس ، والغادة ذات النقاب الشفيف ، والألوان الزاهية ، والأطيار ذات الأزر الباهت — جميع هذه الصور الشرقية تدور في شعر تاجور العالمي فتكسبه حلاوة وروعة من روح الشرق الخالد ، وهي صور تدور في شعره تبحث عن وحدة العالم في تسنة والهام صادق يوحي ادراك ما وراء العالم من الوعي الداخلي ، وادراك المقدس من وراء الناس في اطار يلهم المعنى تلقائياً

وتاجور فيلسوف يدعو الى الاتصال بالعالم ، وهو بهذه الدعوة يهدم خرافات الهنود التي تدعوهم الى التقشف والانزواء الى الحمى — ولقد وجد في الرحلات المتواصلة سبيلاً الى هذا الاتصال فرحل الى اوربا وأميركا وطاف ممالك الارض غير مرة وقابل الملوك والقادة

(١) محاضرات تاجور في كتاب سدهانا

والزعماء ،(1) وأعلن لهم رأيه في صور مختلفة — وعاد الى بلاده ، وفي نفسه حسرة باكية على المدنية الغربية ، مدنية الانانية والاثرة ، مدنية الفتك واذلال الانسانية واحتقار كرامة الروح ، مدنية الجشع والجوع التي قال عنها يوم عاد «انها حقاً مدنية ترقص فوق البركان»

وجد تاجور عند ما عاد من اوربا سنة ١٩٢١ ان عليه مهمة الرجل الاجتماعي المصلح وان ما فكر فيه شاعراً وفيلسوفاً وحكيماً يجب ان يعالج من طريق العمل الاجتماعي ، وان رسالته للانسانية يجب ان تؤدى في وجه جديد ، من طريق التعليم والاصلاح والدعوة والتبشير للمبادىء الحقة ، انقاذاً للبشرية ان تنهار ، فجدد مدرسته في مدينة بلبور التي كان قد أنشأها للاطفال في سنة ١٩٠١ وغير اسمها من «شانتي نكتان» اي «مرفأ السلام» الى معهد عالمي سماه (فسفا بهاراتي) ودعا فيه الى تعاليم جامعة غير ناظر الى جنس او لغة او دين أو لون . وأعلن يومئذ

«بان يكون مهم هذا المعهد هو محو الاثرة من نفوس بنيه ، وان يجاهد الناس في سبيل تغليب الخير في مواطن الانسان وان يحاربوا الشر ويدفعوا به عن شعوبهم وكراماتهم وان تمحى فوارق الجنس واللون وان تسود العالم الوحدة الروحية»

هذه هي المعاني السامية التي بشر بها تاجور ، ثم أنذر الغرب في محاضرات أذاعها عليه في اوربا وامريكا

«إني مشفق على كنوز هذه المدنية الغربية . ومن الواجب انقاذها مما هي فيه من أثرة وأنانية ، يجب ان تسودها الروح ، وألا يندفع الشباب في عصبية مهلكة وراء العقائد والآراء الهادمة»

ويخشى تاجور ان يصاب الشرق «بداء الغرب» فيصاب في أعز ما ادخر من ميراث روحي ولقد بكى تاجور عند ما وصل اليه ان اليابان ضربت الصين بالقنابل وأذاع في اكتوبر سنة ١٩٣٧ رسالة لاسلكية استنكر فيها ان تقوم أمة من الشرق تجتاح أمة شقيقة لها ، وطلب الى ساسة اليابان أن يفهموا روح الشرق الكريم ، وألا يندفعوا وراء داء الغرب الوبيل

وكتب رسالة الى شاعر اليابان «يونى ناجوتشي» قال له فيها : —

«إن الشرق فجر العصر الانساني فيأبى اليوم ان تضرب اليابان المدن البريئة في الصين وان تمثل بالاطفال والشيوخ والاشجار والحيوان [illegible]»

على ان رحلات تاجور الى العالم الغربي لم تكن السبب في تعريفه للغرب ، فلقد سبقته اليه شهرته ، فمنحه مجمع ستوكهلم جائزة نوبل في الآداب في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٣ ، وقرر ان شعره يشمل جميع مطامح النفس . وشهد تاجور مؤتمر الأديان سنة ١٩١٢ واحتفل بعيده الخمسيني سنة

(1) زار تاجور انجلترا وفرنسا سنة ١٩١٢ وحضر مؤتمر الاديان في باريس في هذه السنة ثم زار أوروبا سنة ١٩٢١ وطاف بها ثم زار اليابان وأمريكا وروسيا السوفيتية والصين وجنوب أفريقيا والعراق وكندا وآخر زيارة لأوروبا كانت سنة ١٩٢٦ حيث زار تركيا الحديثة وايطاليا الفاشية وزار مصر في آخر رحلة له

١٩١٢ ، وترجمت كتبه بعد نشر «القربان الشعري» الى جميع اللغات. وأنعم عليه ملك الانكليز في سنة ١٩١٥ بلقب « سير » ولكن تاجور غضب في سنة ١٩١٩ عندما شعر بأن الانكليز قد أساءوا الى أهل البنجاب في مأساة « امرتسار » فاحتج لدى الحاكم ، واعتذر عن قبول هذا اللقب . وأظهر عطفه على غاندي وان كان لا يتفق وإياه في سياسته وقال :—

« إن الشرق يأبى ان يؤخذ بالعنف »

ولقد سألت تاجور يوم زار مصر في سنة ١٩٢٦ بعد ما طاف ممالك اوربا ، عما لفت نظره فيها فقال

« أنا أخشى ان تنهار هذه المدنية ، وفيها ذخر تالد لا يعوض ، إن أوروبا تعاني تيارين قويين : تيار الشيوعية وتيار الفاشستية ، وكلاهما تيار عنيف جارف . وأنا لا أؤيد العنف في اي مظهر من مظاهره »

ولقد أثرت في نفسي زيارة تاجور ، وأيقنت عندما سمعت صوته في نبرات متقطعة هادئة عذبة منسجمة تسري الى أذني ، فتأخذني بجمال عذب يخلق في النفس فيضاً من الاحلام ، أيقنت ان هذا الصوت انما هو ترديد لنفس موسيقية بفطرتها ، وآمنت بما كنت قد قرأته عنه من قبل ، من ان تاجور موسيقي يلحن بنفسه اشعاره وصلواته ، وانه لحن أكثر من ثلاثة آلاف أغنية من أغانيه . وأدركت يومئذ من جلال روحه وسهولتها وبراءتها حبه وشغفه بالاطفال ، ووجدت في جاذبيته ما يدني الارواح البريئة اليه ، وان من أسرار عظمة هذا الرجل الحكيم البساطة وروح الطفولة الشائعة في خلقه وتعاليمه

ولقد احتفلت به مصر يومئذ ممثلة في مليكها الراحل الكريم وفي زعمائها وقادة الفكر فيها ، وأذكر انه عند ما تشرف بمقابلة المغفور له الملك فؤاد طلب الى جلالته ان يهدي الى جامعته بالهند الكتب الادبية التي صدرت بالعربية بمصر التي تعين الهند على التفاهم مع الروح الاسلامي الصحيح . وقال : لقد بلغت مصر من الروح الاسلامي ما لم تبلغه امة اسلامية اخرى

ولم يكن تاجور الى آخر سنة ١٩٣٢ من مؤيدي المهاتما غاندي في آرائه السياسية ، ولكنه انضم الى غاندي عند ما صام صومه الطويل ، داعياً الشعب الهندي ان يلغي الفوارق بينه وبين الانجاس ، وقال يومئذ تاجور :

« إن إزالة الفوارق [illegible] »

ولتاجور نفس لا تصيبها الشيخوخة ، فهو دائماً مقبل على الحياة متذوق جمالها ، مبتهج بها ، ويقول :—

« إننا لن نفهم الحياة إلا اذا فرحنا بها ، فالفرح هو سر المعرفة بالاشياء ، والبهجة غذاء روحي لا ينضب والنفوس تمتلئ عن هذا الفهم دائماً »

فلما بلغ تاجور الثامنة والسبعين شغف بالرسم شغفاً كبيراً ، وأخذ يخرج ما كان يجول

بنفسه من صور ومعانٍ ومشاعر والهامات على اللوحة ، متخذاً الالوان والرسوم أداة لتعبيره . وقد أقيمت لصوره معارض في لندن سنة ١٩٣٨ ، فكانت قصائد من الشعر ملونة في الصور ، ثم عرضت صوره في برمنجهام وموسكو وبرلين وميونخ وباريس ونيويورك . وألقى تاجور في اميركا محاضرات ، نقد فيها المدنية الاميركية ، وبعث الى الاميركيين صورة من فكرة الشرق في معنى الوطنية وقال :—

«إن القومية يجب ان تكون عالية وألا يندفع الشباب بأعصابه الهائجة وراء دعوات الزعماء والقادة ، فهذه الحماسة الكاذبة انما هي عمل ليس من الخير في شيء ، بل اندفاع عنيف سيؤدي الى اراقة الدماء والدمار ويقول : « إن التعاون الدولي لا يكون بعقد المعاهدات وانما يكون بالتقارب الروحي والتفاهم بين الشعوب»(١)

وعند ما بلغ تاجور الثمانين منحته جامعة أكسفورد لقب دكتور في الآداب ، وكانت السر موريس جوير كبير قضاة الهند أن ينوب عنها ويقدم لتاجور براءة اللقب في قريته تقديراً لآدابه وتعاليمه . وظلت روح تاجور عالية سامية في اجوائها على الرغم مما اصابه من ضعف في أعصابه ومرض لازمه طويلاً ولبث قوي الروح حتى أطفىء سراجه في ٧ اغسطس ١٩٤١ ليتبوأ مكانه المقدس في سماء الابدية الخالدة ، فلقي ربه غاية ما كان يصبو اليه في حياته شاعراً وفيلسوفاً وفناناً . وليس الموت في نظر تاجور الا الاتصال بالله والفرح به ، وليس هو اتصالاً منقطعاً وانما هو لون آخر من ألوان بقاء الروح وخلودها ، أو وجه آخر لهذه الحياة البشرية ، وهو الوجه الخيّر الفاضل ، وتاجور يقول لرفاقه في المدرسة : —

« لا تبكوا أيها الرفاق ، ولا تخشوا الموت فلكم فيه مسرة ورضا ، ولكم فيه الوصول الى الحق المطلق ولكم فيه مصير مريح موصول بالحياة الابدية — لقد دعينا الى الحياة فلبينا وبورك لنا في حياتنا ، وسندعى الى الحياة مرة أخرى على ضفاف الابدية ، حيث تمس حياتنا في لطف الله ، وننعم بوجودنا بين يدي الحقيقة المطلقة . انكم أيها الرفاق كالطفل يبكي حينما تنزع أمه ثديها الايمن من فمه ، مع أنها لا تلبث ان تناوله الثدي الايسر الذي يجد فيه العزاء والسلوى » (٢)

ولتاجور في القربان أنشودة يقول فيها :

« لقد أجاز لي صاحب الامر الذهاب
فودعوني يا رفاقي
اني أحييكم جميعاً ، ثم لاحق في سبيل من سبق
وهذا مفتاح بابي أرده ،
وما كان داري قد نزلت عن حقي فيها
واني لا أسألكم غير وداع طيب »

فوداعاً يا تاجور ، يا من تويت في ضمير الحياة ، بعد ان ملأت كأسها شعراً وحكمة وعبة وفلسفة ، وقدمت أشهى قطاف عمرك ، قرباناً للانسانية مبذولاً

(١) كتاب القومية لتاجور (٢) محاضرات تاجور